الأمة

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

العدد السادس – السنة الثانية 1990

الموسم

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمد سعيد الطريحي

مؤسس

أكاديمية الكوفة

هولندا

المراسلات

KUFA ACADEMY
POSTBUS 1113
3260 AC OUD - BEYERLAND
NEDERLAND
www.almawsem.net
www.shiaparliament.com

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مرکز اطلاع رسانی

۱۳۸۹/۱۰/۲۲

Shiabooks.net

الاجتهاد عند الشيعة الامامية حتى عصر السيد الخوئي

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

تاريخ الاجتهاد :

لقد كانت الأمم تترامى بهم أمواج الضلال فلا ينقذون من هوة الهوان إلا ويقذفون الى أعمق منها سادت فيهم الفوضى وطنبت عليهم العادات الخرافية وحكمتهم النواميس المخزية فمن دماء مهدورة وغارات متتابعة وأخلاق وحشية ونظم مهتوكة وسبيل الأمن شائك وسير الانسانية متقهقر يعبدون الحجارة ويشربون الرنق ويقتاتون القد ، أذلة خاسئين ، يخافون أن يتخطفهم الناس .

فظهر بينهم الرسول الأقدس «محمد» صلى الله عليه وآله حاملاً مصباح الهداية هاتفاً بما فيه حياة البشر عامة من الطقوس الراقية والتعاليم الالهية والنظم المقدسة فأبطل مسعى الالحاد وتفككت عرى الوثنية واندحرت عادات الجاهلية وكان دستوره المتكفل للعز الخالد :

الكتاب المجيد

فإنه منبع المعارف والعلوم فاستعان به علماء العربية وفقهاء الشريعة واتخذه الفرق الاسلامية للتدليل على ما ذهبوا اليه وركن اليه الفلاسفة وأساتذة الطب في المهم من هذه المباحث .

وقد جمع الصحابة كتاب الله بتمامه في اضبارة خاصة أيام صاحب الدعوة الالهية بأمر منه صلوات الله عليه وآله[1] فإن تركه هذا القانون الموحى به اليه في الجرائد والعظام كما عليه المزاعم معرض للتلف والزيادة والنقصان مع انه متكفل لأنظمة حياة الأمم وسعادتها فرسول السماء المبعوث للاصلاح لا يستسيغ القرآن متفرقاً بين الصبيان والنساء .

ولم يختلف اثنان في جمع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لكتاب الله على حساب النزول[٢] وقد رأى ابن النديم مصحفاً بخط على (ع) عند أبي يعلى حمزة الحسيني يتوارثه بنو الحسن[٣] كما ختم جماعة من الصحابة القرآن عدة مرات على النبي (ﷺ) [٤] ويحدث محمد بن كعب القرظي ان علي بن أبي طالب وعثمان وابن مسعود ختموا القرآن ورسول الله صلى الله عليه وآله حي .[٥]

وابن العربي المالكي الأندلسي لم يتأخر عما عليه صحيح الأحاديث من جمع القرآن بتمامه أيام النبي (ﷺ) وبأمر منه فيقول كان تأليف القرآن ينزل من عند الله تعالى فيبينه النبي لكتّابه ويميزه لأصحابه ويرتبه على أبوابه فإنه لم يذكر لهم شيئاً ليتبين للخلق ان الله تعالى يفعل ما يشاء[٦] .

وحديث انس بن مالك ينص على ان اربعة من الصحابة جمعوا القرآن على عهد رسول الله (ﷺ) وهم معاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد أحد عمومته واختلفت الرواية عنه في الرابع هل هو أبو الدرداء أو أُبي بن كعب .[٧]

ويستوضح الحاكم النيسابوري جمع القرآن على عهد الرسول (ﷺ) من قول زيد بن ثابت : كنا عند رسول الله نؤلف القرآن من الرقاع[٨] ويؤكده مجاهرة ابن عمر في جمعه القرآن وقرائته كل ليلة غير أن النبي (ﷺ) أمره بقرائته في كل شهر .[٩]

السنة النبوية :

وهي عبارة عن أوامر النبي (ﷺ) ونواهيه وأعماله بحضرة أصحابه قاصداً تعبيد الجادة الموصلة الى الرضوان وتقريره الأعمال التي تأتي بها الصحابة بحضرته وهي كالكتاب المجيد في تلكم الأهمية الكبرى لأن صاحبها لا ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى ، وأول من دون الحديث من الشيعة أبو رافع مولى رسول الله (ﷺ) أهداه له العباس بن عبد المطلب فاعتقه النبي (ﷺ) وسماه ابراهيم وأسلم قديماً وهاجر الى المدينة ولازم أمير المؤمنين علياً عليه السلام وكان قيّمه على بيت ماله بالكوفة الى أن توفي أول خلافته .[١٠]

ورأى السيوطي في نسبته الى الزهري[١١] فآيل لتقدم أبي رافع عليه إلا أن يقصد به أول التابعين ، على أن الزرقاني يذهب الى أن الصحابة والتابعين لم يكتبوا الحديث وإنما كانوا يؤدون الأحاديث لفظاً ويأخذونها حفظاً إلا كتاب الصدقات ولما خاف عمر بن.عبد العزيز اندراسها أمر قاضيه على المدينة أبا بكر محمد بن عمرو بن حزم أن يجمع الأحاديث فتوفي ابن عبد العزيز وقد جمع ابن حزم كتاباً قيل ان يبعث به اليه[١٢] وفي تخريج أبي نعيم الاصبهاني ان عمر بن عبد العزيز كتب الى الافاق بجمع حديث رسول الله صيانة له عن التلف .[١٣]

لقد ظل الصحابة من بعد الرسول والتابعون من بعدهم يستقون مسائل الشريعة من الأحاديث النبوية ولما تكثرت الفروع بسبب اختلاط المسلمين بغيرهم ولم يكن من تلك الدراري اللامحة ما فيه النص عليها مال قسم من العلماء الى الرأي والاستحسان مستندين الى ان الشريعة معقولة المعنى ولها أصول محكمة فهمت من الكتاب والسنة فكانوا يبحثون عن علل الأحكام وربط المسائل بعضها ببعض ولم يحجموا عن الفتوى برأيهم فيما لا يجدون نصاً فيه واشتهروا بأصحاب «الرأي والقياس» كما قيل لمقابليهم الواقفين على النصوص فحسب «أهل الظاهر» وكان أكثر أهل العراق أهل قياس وأكثر أهل الحجاز أهل حديث وعلى هذا كان سعيد بن المسيب يقول لربيعة بن عبد الرحمن المتوفى سنة١٣٦هـ لما سأله عن علة الحكم : أعراقي أنت ؟! .[١٤]

ولعل أول من غرس بذرة العمل بالقياس (عمر) فإنه يقول في كتابه الى أبي موسى الأشعري : إعرف الأشباه والأمثال وقس الأمور عند ذلك بنظائرها واعمد الى أقربها عند الله تعالى وأشبهها بالحق .[١٥]

وممن أخذ بالقياس والاستحسان أبو حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة ١٥٠هـ تلقاه من استاذه حماد بن سليمان المتوفى سنة ١٢٠هـ تلميذ ابراهيم بن يزيد النخعي المتوفى سنة ٩٦هـ[١٦] وأعانه على تأسيسه تلميذاه أبو يوسف القاضي المتوفى سنة ١٨٢هـ ومحمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٩هـ . [١٧]

وخامة القياس :

ولم يزل أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق (ع) يعرف أبا حنيفة وخامة القياس ورداءة عاقبته قال له يوماً : أيهما أعظم عند الله تعالى قتل النفس التي حرم الله قتلها أم الزناء ؟ قال أبو حنيفة : القتل فقال الصادق عليه السلام : فلماذا قبل الله تعالى في القتل شاهدين وفي الزناء أربعة شهود ؟! فوجم أبو حنيفة ولم يدر ما يقول .

ثم قال الصادق (ع) أيهما أعظم عند الله تعالى الصوم أم الصلاة ؟ قال أبو حنيفة الصلاة فقال الصادق (ع) لماذا تقضي المرأة الصوم أيام الحيض ولا تقضي الصلاة ؟!

ثم قال : يا عبد الله اتق الله ولا تقس فإنا نقف غداً بين يدي الله تعالى نحن وأنت فنقول قال الله عز وجل وقال رسول الله (ﷺ) وتقول أنت وأصحابك قسنا ورأينا فيفعل الله بنا وبكم ما يشاء إن أول من قاس ابليس إذ أمره الله بالسجود لآدم فقال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين .[١٨]

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : لو كان الدين بالرأي لكان أسفل القدم أولى بالمسح من أعلاه[١٩] وعن النبي (ﷺ) تفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة أعظم فتنة على أمتي قوم يقيسون الأمور بآرائهم فيحلون الحرام ويحرمون الحلال .[٢٠]

وقد انكرت الشريعة المقدسة القياس ومنعته بتاتاً وفيه يقول أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق (ع) لابان بن تغلب المتوفى سنة ١٤١هـ «السنة إذا قيست محق الدين» .

والقصة في ذلك انه سأل أبا عبد الله عن دية قطع اصبع من أصابع المرأة فقال عليه السلام عشرة من الإبل قال ابان فإن قطع اثنين قال أبو عبد الله عشرون من الإبل قال ابان فإن قطع ثلاثة قال أبو عبد الله : ثلاثون من الإبل قال ابان فإن قطع أربعة قال أبو عبد الله : عشرون من الإبل .

فاستغرب ابان هذا الحكم وتعجب كثيراً لأنه عراقي وشايع عند أهل العراق القياس وهو قاض بأن قطع الأربعة يوجب اربعين من الإبل فقال يا سبحان الله ان هذا كان تبلغنا ونحن بالعراق فنقول ما جاء به إلا شيطان فعندها رفع «إمام الأمة» بصيصاً من القول الحق اهتدى به ابان الى الطريق الرحب وقال له : مهلاً يا ابان هذا حكم الله وحكم رسوله ان المرأة تعاقل الرجل الى ثلثي الدية فإذا بلغت رجعت الى النصف يا ابان انك اخذتني بالقياس والسنة إذا قيست محق الدين .[٢١]

ولم يتباعد عن هذا الحكم سعيد بن المسيب ومالك وجمهور أهل المدينة[٢٢] ففي الحديث ان ربيعة يسأل سعيد بن المسيب عن دية اصبع المرأة فيقول له عشرة من الإبل قال كم في اثنتين قال عشرون من الابل قال كم في ثلاثة قال ثلاثون من الإبل قال كم في اربع قال عشرون من الإبل . فقال ربيعة : حين عظم جرحها واشتدت مصيبتها نقص عقلها قال سعيد : أعراقي أنت !؟ قال ربيعة عالم متثبت أو جاهل متعلم قال يا ابن اخي انها السنة .[٢٣]

وأبو حنيفة مع ما يرى لنفسه المكانة العلمية لم يعدم الانتفاع من الإمام الصادق(ع) والاقتباس من آثاره اللامعة[٢٤] كما حظى من قبل بأبيه أبي جعفر الباقر عليه السلام .

وكان مالك بن أنس امام المالكية يكثر من اطراء أبي عبد الله جعفر بن محمد(ع) فيقول : كنت أختلف زماناً الى جعفر بن محمد الصادق(ع) فما رأيته إلا صائماً أو مصلياً أو قارئاً للقرآن وما رأيته إلا على طهارة[٢٥] ولا يتكلم فيما لا يعنيه وهو من العلماء الزهاد الذين يخشون الله ويتقونه حق تقاه[٢٦] ومن هنا كان يرجع اليه في مشكلات الشريعة[٢٧] وانكار الذهبي رواية مالك عنه[٢٨] محكوم بشهادة الاعلام .

عصر الأمويين :

لقد بقي علماء الحديث ردحاً من الزمن بين حفظه أولاً وتدوينه ثانياً حتى أيام الحكم الأموي الذي يصفه أحمد أمين بقوله : لم يكن الحكم الأموي حكماً اسلامياً يسوى فيه بين الناس ويكافىء فيه المحسن عربياً كان أم مولى ولم يكن الحكام خدمة للرعية على السواد وإنما كان الحكم عربياً والحكام خدمة للعرب على حساب غيرهم وكان تسود العرب فيه النزعة الجاهلية لا النزعة الاسلامية .

ويقول جرجي زيدان : يعد انتقال الدولة الاسلامية الى بني امية انقلاباً عظيماً في تاريخ الأمة الاسلامية لأنها كانت في زمن الخلفاء الراشدين خلافة دينية فصارت في أيامهم ملكاً عضوضاً وكانت شورية فصارت ارثية ويعتقد المسلمون عدم احقية معاوية للخلافة لأنه طليق لا تحل له ولم يعتنق الاسلام إلا كرهاً .[٢٩]

لم يهتم الخلفاء في عهد الدولة الأموية بشيء من شؤون التشريع إلا قليلاً كعمر بن عبد العزيز فالتشريع لم يرق تحت حمايتهم ورعايتهم كالذي كان في عهد الدولة العباسية ولم يبذل الأمويون محاولة في صبغ تشريعهم صبغة رسمية فلا ترى في الدولة الأموية مثل أبي يوسف في الدولة العباسية يحميه الخلفاء ويؤيدونه في التشريع ويوثقون الصلة بينه وبينهم وبينه وبين قضاة الأمصار ولا ترى من المشرعين من اتصل بالأمويين إلا قليلاً كالزهري .[٣٠]

وفي العصر الأموي كان المرجع في الفتيا أهل المدينة ولم يقطع الخلفاء أمراً دونهم كما ان فقهاء هذا العصر لم يخلفوا آثاراً في الفقه مكتوبة فإنها ظهرت في العصر العباسي .[٣١]

العصر العباسي الأول :

لما جاء العصر العباسي الأول سنة ١٣٢هـ وقد اكتسح الأمويين شجع الخلفاء الحركة العلمية ومدوا أربابها بسلطانهم فانتعشت العلوم الدينية في ظلهم وترجمت الكتب من اللغات الأجنبية الى العربية وكانت حركة النهوض أسرع الى العلوم الشرعية من غيرها لأنهم فرضوا أحقيتهم بالأمر من غيرهم لانتسابهم الى البيت الأموي وانهم سيشيدون على اطلال الحكومة الموسومة بالزندقة عند أهل الصلاح نظاماً منطقياً على سنة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وأحكام الدين الالهي .[٣٢]

لما انتظم أمر الدولة العباسية ظهر الجدل والخلاف واتسع المجال للعقول خاف المنصور الدوانيقي من جراء ذلك تشتيت أمر الشريعة ودخول الفوضى في الأحكام فأمر انس بن مالك ان يكتب له كتاباً يتجنب فيه رخص ابن عباس وشدائد ابن عمر فكتب (الموطأ) وأراد المنصور ان

يحمل الناس على العمل به كما حمل عثمان الناس على العمل بالمصحف وفتر مالك من عزمه بدعوى ان الناس بعد رسول الله (ﷺ) على هدى فتبطأ المنصور عن امضاء فكرته[٣٣] وتحكي هذه القصة عن الرشيد معه وانه أراد تعليق الموطأ على الكعبة فلم يوافقه مالك .[٣٤]

وكل منهما يجهل ما عند «الصادق(ع)» من فقه الشريعة المستقى من اللوح المحفوظ وفنون المعارف وتأويل القرآن المجيد وأسرار الطبايع وجوامع التاريخ سجلت اعترافها بذلك .

في هذا العصر تمكن استنباط الأحكام واستقرت أصوله وسمي أهله بالفقهاء ويرى الموفق أحمد المكي الحنفي أن أبا حنيفة أول من دون الفقه ورتب أبوابه .[٣٥]

لكن شافعية الرازي لم تهضم هذه الدعوى فأخذ يناقشه الحساب بأنه إن أراد من التدوين التصنيف لم يثبت له شيء وإنما أصحابه الذين صنفوا وإن أراد التفريع فقد سبقه اليه الصحابة والتابعون .[٣٦]

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

العصر العباسي الثاني :

في العصر العباسي الثاني سنة ٣٣٢هـ ظهر المجتهدون من فقهاء الاسلام وكونوا لهم مذاهب نسبة اليهم غير أنها لم تستمر تجاه المذاهب الأربعة التي أوقفت الاجتهاد عند حدها كيا قصر التقليد على أربابها واندرس اثر المقلدين لسواهم وسد الناس باب الاجتهاد[٣٧] بالرغم من عدم خضوع جملة من محققي علماء السنة لذلك مدعين فتح باب الاجتهاد[٣٨] وادعى بعضهم أن من الجرأة على الله عز وجل وعلى رسوله وشريعته حصر فضل الله تعالى على بعض خلقه وقصر فهم أحكام الشريعة على طائفة خاصة[٣٩]

ويذهب محمد فريد وجدي الى أن باب الاجتهاد والاستنباط من الكتاب والسنة مفتوح الى يوم القيامة ولكن قصور انهام جملة من البارزين اضطرهم الى ستر هذا القصور بدعوى الانسداد .[٤٠]

حصر المذاهب في الأربعة :

اختلف في الأسباب التي أوجبت حصر المذاهب في الأربعة فالذي عليه يأتربت الحموي ان القادر العباسي المتوفى سنة ٣٨١هـ أمر أربعة من علماء الاسلام ان يصنف كل واحد منهم مختصراً على مذهبه فصنف الماوردي الشافعي الاقناع وصنف أبو الحسين القدوري مختصرا على مذهب أبي حنيفة وصنف أبو محمد عبد الوهاب بن محمد بن نصر المالكي مختصراً ولم يعرف من صنف له على مذهب أحمد بن حنبل ولما عرضت على القادر قبلها وامضى العمل عليها .[٤١]

ويحدث ملا عبد الله المعروف بالأفندي تلميذ المجلسي في رياض العلماء اتفاق رؤساء الأمة في زمن علم الهدى الشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦هـ على تقليل الآراء في الأحكام الشرعية لئلا يوجب كثرة الخلاف قلة الوثوق بالشريعة المقدسة فتلحق بالأناجيل المبتدعة ولحصر ذلك عينوا مبلغاً من المال فكل طائفة تدنعه يقرر مذهبها رسمياً فاستطاع ارباب المذاهب الاربعة ان يدفعوا ذلك المقدار من المال لوفور عدتهم وعددهم وتأخر غيرهم ولم يوافق الشيعة الامامية على هذا وعجز الشريف المرتضى عن اقناعهم فتقررت المذاهب الأربعة عند الدولة رسمياً ودرس غيرها .

وهذه الحكاية لا تتباعد عما حكاه الحموي لأن الشريف المرتضى عاصر القادر بالله في كثير من السنين فيمكن أن ترتئي الدولة مالاً خطيراً لقطع المعاذير وتقليل الآراء كما من المحتمل ان القادر بالله غرس هذه البذرة وتم نتاجها وتحكمت اصولها في زمن الملك بيبرس الذي يحدث المقريزي عنه بقوله :

لما كانت سلطنة الملك الظاهر «بيبرس البند قداري» ولى بمصر القاهرة اربعة قضاة شافعي ومالكي وحنفي رحنبلي واستمر ذلك من سنة ٦٦٥هـ حتى لم يبق من مجموع أمصار الاسلام مذهب يعرف من مذاهب اهل الاسلام سوى هذه المذاهب الأربعة وعقيدة الأشعري ابي الحسن علي بن اسماعيل رعملت لأجل المدارس والربط في سائر ممالك الاسلام وعودي من تمذهب بغيرها وانكر عليه ولم يول قاض ولا قبلت شهادة أحد ولا قدم للخطابة والامامة والتدريس ما لم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب رافتى فقهاء الاسلام طول هذه المدة بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها والعمل على هذا الى اليوم[١٢] هذه لمعة مختصرة من نشوء اجتهاد المسلمين في الفقه وارتقائه .

الاجتهاد عند الإمامية :

إن أصحابنا الإمامية قد أذعنوا لقانون الخلافة الإلهية الكبرى التي لم يزل صاحب الدعوة (ﷺ) طيلة حياته يجاهر بالتنويه بها وأوقف أصحابه في مواطن عديدة على أسماء من يلي أمر الأمة من بعده من أبنائه الأقدسين بعد سيد الأوصياء أمير المؤمنين(ع) وأوضح ما منحهم الباري عز رجل بد من العلم بأسرار الطبايع وحوادث الكون من خير وشر وكان الأصحاب يتحفظون بما تحمله عن أئمتهم عليهم السلام من الأحاديث في فقه الشريعة وآثارها حتى ان ابان بن تغلب وهو راوٍ واحد حدث عن أبي عبد الله عليه السلام بثلاثين ألف حديث[١٣] وتظافر النقل ان اربعة آلاف رجل من المشتهرين بالعلم جمعوا من أجوبة مسائله اربعمائة كتاب عرفت بالأصول الأربعمائة[١٤] كلهم من أهل العراق والحجاز والشام وخراسان .[١٥]

وهذا غير ما دوّن عن السجاد والباقر والأئمة بعد الصادق عليه السلام فقد جمع أصحابه فيما تحملوه من أحاديثهم ما يزيد على الأصول الأربعمائة بكثير[٤٦] ولم تزل تلكم الأحاديث محتفظاً بها في موسوعات هامة كالأصول الأربعة :

«الأول من الأصول» : الكافي ، لمحمد بن يعقوب الكليني المتوفى ببغداد سنة ٣٢٩هـ ألفه في حياة السفراء عن الإمام المنتظر عجل الله فرجه ويحكي ملا خليل القزويني في شرح الكافي انه عرض على «ولي العصر» عليه السلام فاستحسنه وفي نص الشهيد الأول محمد بن مكي المستشهد سنة ٨٧٦هـ زيادة أحاديثه على الصحاح الستة فقد أحصيت أحاديثه الى ستة عشر الف ومائة وتسعة وتسعين حديثاً مع أن أحاديث البخاري بحذف المكرر اربعة آلاف ومثله صحيح مسلم بحذف المكرر وأحاديث الموطأ وسنن الترمذي والنسائي لا تبلغ عدد صحيح مسلم .

على أن الشيخ الكليني كما يقول عنه الوحيد البهبهاني المتوفى سنة ١٢٠٨هـ عانى في جمعه المشاق بمسافرته الى البلدان والأقطار واجتماعه بشيوخ الاجازات وقرب عصره من أرباب الأصول الأربعمائة والكتب المعول عليها ومضى له على تأليفه عشرون سنة .[٤٧]

«الثاني من الأصول» : من لا يحضره الفقيه ، لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه المتوفى بالري سنة ٣٨١هـ .

«الثالث والرابع من الأصول» : التهذيب والاستبصار ، لأبي جعفر محمد بن الحسين بن علي الطوسي المتوفى والمدفون بداره في النجف الأشرف سنة ٤٦٠هـ .

وقد جمع هذه الأصول الأربعة مع زيادة بعض الشرح عليها من بعض الأخبار ملا محسن الكاشي المعروف بالفيض المتوفى في كاشان سنة ١٠٩١هـ في كتاب أسماه «الوافي» كما جمع تلك الأصول الأربعة مع الزيادة عليها من كتب اخرى محمد بن الحسن الحر العاملي المتوفى بمشهد أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام سنة ١١٠٤هـ في كتاب أسماه الوسائل واستدرك عليه ما فاته محمد الحسين النوري المتوفى في النجف الأشرف سنة ١٣٢٠هـ في كتاب أسماه المستدرك .

وأما المجلسي الثاني محمد باقر بن المجلسي الأول محمد تقي المتوفى بأصفهان سنة ١١١٠هـ فقد توفرت لديه جوامع الأخبار مع ما كتبه علماء السنة في الحديث والفقه والرجال والسيرة والفلسفة بمساعدة الملوك الصفوية فأودعها في دائرة المعارف المحمدية المسماة بـ(البحار) في ست وعشرين مجلداً وهذه الكتب التي ألمعنا اليها كلها مطبوعة ومنتشرة في الآفاق .

أول من فتح باب الاستنباط :

لقد استمر الحال بحفظ الحديث وتدوينه منذ عصر المعصومين عليهم السلام الى أن وقعت الغيبة الكبرى بوفاة أبي الحسن علي بن محمد السمري في النصف من شعبان سنة ٣٢٩هـ في بغداد وفي هذا العصر دونت فروع الفقه الجعفري وأول من فتح باب استنباط الفروع من أدلتها وهذبها الشيخ الجليل محمد بن أحمد بن الجنيد أبو علي الكاتب الاسكافي[٤٨] المعاصر لأبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني والشيخ الصدوق علي بن بابويه المتوفى سنة ٣٢٩هـ والمدفون «بقم» .

الاجتهاد في القرون السابقة :

فابن الجنيد هو الذي كتب الفروع الفقهية وعقد لها الأبواب في كتابه (تهذيب الشيعة) وكتاب (الأحمدي) في الفقه المحمدي ونبه على أصول المسائل وبين ما يقتضيه مذهب الإمامية بعد ان ذكر أصول جميع المسائل فإن كانت المسألة ظاهرة اقتنع فيها بمجرد ذكر الفتوى وان كانت مشكلة أومأ الى تعليلها ووجه دليلها وان اختلفت أقوال العلماء فيها ذكرها : عليها والصحيح منها والأصح والأقوى والظاهر والأظهر .

واقتفى أثره الحسن بن علي بن أبي عقيل المعروف بالعماني الحذاء[٤٩] كان وجهاً من وجوه الإمامية وشيخ فقهائهم والمتكلم المناظر في الفقه والمحقق في العلوم الشرعية عاصر الشيخ محمد بن يعقوب الكليني والصدوق علي بن بابويه[٥٠] وكان الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان يكثر الثناء عليه ويقول أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي هو من فضلاء الإمامية المتكلمين[٥١] واستجازه بالكتابة أبو القاسم جعفر بن محمد بن جعفر بن موسى بن قولويه صاحب كامل الزيارة المتوفى سنة ٣٦٩هـ والمدفون في رواق مشهد الإمام موسى بن جعفر[٥٢] فكتب اليه ابن عقيل باجازة كتابه (المتمسك بحبل آل الرسول) وبساير كتبه .[٥٣]

وتابعهما[٥٤] في استخراج المسائل الفقيه شيخ الطائفة والمناضل عن مذهبهم مع مهارة في الجدل وبصيرة في مناظرة أهل كل عقيدة مع الجلالة والعظمة وحسن البيان والصبر مع الخصم[٥٥] المخاطب من صاحب العصر عجل الله فرجه بالأخ الولي المخلص في ودنا الشيخ المفيد[٥٦] وهو محمد بن محمد بن النعمان العكبري المتوفى ببغداد سنة ٤١٣هـ المدفون في داره سنين ثم نقل الى مشهد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام .[٥٧]

وكان كتابه «المقنعة» مدار الدراسة بين العلماء . يحدث الشيخ نجيب الدين يحيى بن سعيد الحلي عن السيد محي الدين بن زهرة انه قرأ المجلد الأول من المقنعة للشيخ المفيد ومعظم

المجلد الثاني في سنة ٥٨٤هـ ولم يبلغ عشرين سنة على عمه الشريف الطاهر أبي المكارم حمزة بن زهرة الحسيني وقد نيف على السبعين وأخبره انه قرأه بتمامه ولم يبلغ العشرين سنة على الشيخ المكين أبي منصور محمد بن الحسن بن منصور النقاش الموصلي وهو طاعن في السن وأخبره انه قرأه على الشريف النقيب أبي الوفاء المحمدي الموصلي في أول عمره والنقيب طاعن في السن وأخبره انه قرأه في أول عمره على المؤلف رضي الله عنه .(٥٨)

ومثل هذه القراءة صدرت من نجم الدين بن نما عن والده عن محمد بن جعفر المشهدي عن الشيخ المكين أبي منصور محمد بن الحسن بن منصور النقاش الموصلي عن النقيب المحمدي الموصلي عن الشيخ المفيد .(٥٩)

وعلى هذا الضوء ألف علم الهدى الشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦هـ الناصريات والانتصار في الفقه المقارن وألف الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠هـ «المبسوط» وكان حافلاً بالفروع الفقهية وناظر أهل السنة في كتابه «الخلاف» مع بسط في الأدلة وكتابة «النهاية» محل أنظار العلماء في التدريس كالشرايع للمحقق الحلي في العصر الحاضر وبهذه المناسبة كان لها شروح متعددة .

وألف محمد بن احمد بن ادريس الحلي المتوفى سنة ٥٩٨ السرائر والمحقق نجم الدين جعفر بن يحيى الحلي المتوفى سنة ٦٧٦هـ الشرايع ومختصر النافع والمعتبر في الفقه المقارن والعلامة الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي المتوفى سنة ٧٢٦هـ القواعد والتحرير والارشاد والتذكرة والمنتهى كلاهما في الفقه المقارن والشهيد الأول محمد بن مكي بن محمد العاملي المتوفى قتلاً سنة ٧٨٦هـ الذكرى والقراعد وغيرها والشهيد الثاني علي بن أحمد العاملي المتوفى قتلاً سنة ٩٦٦هـ المسالك وروض الجنان وغيرها .

واقتفى العلماء من أصحابنا الإمامية هذا الأثر من تدوين مسائل الفقه حسبما أدى اليه اجتهادهم مع تحقيق عميق ومهارة في استنباط الفروع مائلين عن جادة القياس المكدسة بأشواك الخطأ والتضليل مستضيئين في ذلك بأحاديث أئمتهم الذين لا ينطقون عن الهوى وإنما هو تعليم من (عزيز عليم) بما أودعه فيهم من القوة القدسية النورية التي بها تمكنوا من استعلام ما يحدث في الكائنات وهي المعبر عنها بروح القدس في بعض الأخبار .

الجامعة الكبرى للشيعة :

كانت مدينة النجف الأشرف الجامعة الوحيدة بين البلدان لدرس الفنون والمعارف الإلهية منذ هبط اليها شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي بعد أن لاقى ببغداد من الحنابلة غصصاً وكابد ما لا يغض الطرف عنه يوم هجموا على داره بالكرخ سنة ٤٤٨هـ وأحرقوا كتبه

وآثاره ونهبوا داره[٦٠] وجرى لهم مع شيخه المفيد محمد بن محمد بن النعمان ما هو أفظع وأشنع حتى أخرجه عميد الجيوش الى خارج بغداد في سنة ٣٩٢ وسنة ٣٩٨هـ غير ان شفاعة علي بن مزيد أرجعته الى مقره ببغداد[٦١] كما نهبوا دار الشريف المرتضى في سنة ٤٢٢هـ وقتلوا جماعة من الشيعة .

في سنة ٤٤٨هـ حلّ الشيخ الطوسي هذه البقعة المغمورة بالفيوضات الإلهية ببركات باب مدينة علم الرسول فانضوى اليه أهل الفضيلة ممن قطنها قبلها للاقتبال من آثاره والاستضاءة من معارفه التي حباه المهيمن سبحانه بها وتزاحمت العلماء على الانتهال من بحره المتموج بأسرار أهل البيت(ع) .

وكانت حلقات مجالس الدراسة ورواية الحديث في أيامه وثيقة الأطراف وأصبحت «النجف» مركزاً للزعامة العلمية وجامعة كبرى لنشر الفقه والأصول والحديث والتفسير والفلسفة العالية والرجال والأدب ولم تكن الدراسة فيها على نهج ترتيب الصفوف والتدرج من صف لآخر يتلقى التلميذ دروسه من استاذه على حساب المنهج المقرر له لا يتخطاه .

وإنما هناك حلقات تضم الفاضل والأفضل وغيرهما يلقي عليهم الاستاذ نتيجة بحثه عن أدلة الأحكام وتضارب الأقوال فيوفق بين الجميع يثاقب فكره والملكة المرتكزة فيه ويجزم بما ينتج عنده فيفيضه على الطلاب وبهذا تتجلى مقدرة الاستاذ العلمية كما يعرف مبلغ التلميذ من الفضيلة وحتى اذا تمكنت فيه ملكة استنباط الفروع من أصولها يمنحه الاستاذ الشهادة بالاجتهاد فيؤوب الى بلاده حاملاً من تلك الجامعة الكبرى «النجف الأشرف» ما هو أعز عنده من كل نفيس للتبشير والدعوة الى دين التوحيد دين السلام والأمن دين التضامن والعطف دين الإخاء والحرية وبه يسترشد الضال ويتفقه الجاهل ويقام الأمت وإلاود ويكون هو الفرد الأكمل لقوله تعالى : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) .

ولقد تخرج من هذه الجامعة مئات العلماء الاعلام الذين حازوا بفضل جدهم وسعيهم أقصى مراتب الاجتهاد وآثارهم في الفقه والأصول والعقايد والتفسير والفلسفة والرجال كلها موجودة احتفظت بها رجال العلم والأدب وقد سدت فراغاً كبيراً في المكتبة العربية .

ولما أجاب شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي داعي السماء في سنة ٤٦٠هـ بعد أن أقام في النجف اثني عشر سنة قام ولده أبو علي الحسن بن محمد مكانه فانعكف عليه العلماء للاقتباس من معارفه فاستجازه ذووا الفضل في رواية الحديث واستشهدوه على ما تحلوا به من ملكة الاجتهاد الصحيح وأماليه المطبوع مع أمالي أبيه يصور الحقيقية بأجلى مظاهرها .

الاجتهاد المعاصر :

واستمرت الهجرة الى «النجف» من ذلك العهد الى العصر الحاضر وان تحلت باعلام الإمامية «الحلة والحاير وسامراء» في فترات من الزمن لكن حلقات الدراسة في هذه (الجامعة) متواصلة ولا يتحمل المقام وصف الثقافة في تلكم العصور متسلسلاً الى أيام السيد بحر العلوم فالشيخ الأكبر كاشف الغطاء الى مجدد المذهب في كتابه الحاوي لما حرر من مسائل الشريعة مع تحقيق عميق «صاحب الجواهر» فأذعن اولوا النهي بفضله وتسابقوا الى اختزان جواهره والاقتباس من آرائه الثاقبة .

وحيث ان المولى تعالت أياديه لم يخل الأرض من مصلح مجاهر بالدعوة الالهية يزيح الأوهام ويدعو الى سبيل ربه بالحكمة ويرشد الى الطريقة المثلى غمر الفيض الربوبي شخصية شيخنا «الانصاري» ومنحته المشيئة القدسية مواهب ميزته على من تقدمه من الأعلام فكان مرموقاً في الفضائل جمعاء . لذلك اتخذ رواد المعارف كتابيه «الرسائل» في أصول الفقه و«المتاجر» في الفقه الجعفري أساس التعليم والدراسة العالية وأكثر المحققون من تلامذته وغيرهم من التعليق عليهما والتنبيه على ما فيهما من دقايق العلم .

وكان للدراسة فيها أيام شيخ المحققين المولى محمد كاظم الخراساني نور الله ضريحه سوق رابح فلقد هبط هذه المدينة «النجف» في أيامه الجم الغفير من العلماء للاستضاءة من آرائه وتحقيقاته وقام من بعده اساتذة الفن من الاعلام المحققين يفيضون على الطلاب ما انتهلوه من بحر علم آل البيت عليهم السلام حتى انتهى الدور الى فخر المحققين وعمدة الفقهاء المبرزين «السيد أبو القاسم الخوئي» المميز من المولى الجليل تعالت نعماؤه بالذكاء المتوقد وإصابة الرأي ولا أغالي إذا قلت : باحث أرباب المعقول ففاقهم ودارس الأصوليين فأذعنوا له وجرى مع المفسرين فحاز قصب السبق وناظر المتكلمين ففلجهم وكتابه في مقدمة التفسير «البيان» حافل بما لم تصل اليه أفكار النابهين ولم يسبقه المتقدمون في كثر مما كشف الغطاء عنه .

فلقد غاص بحر الشريعة واستخرج لئالئه الناصعة ولمس الحقايق الراهنة وأماط الستار عن كثير مما أشكل الفحول والأكابر وأوضح السبيل الى تفاريع المسائل وأنار المنهج الى درس كليات الفنون فلذلك كان مقصد المهاجرين من العلماء لدرس أصول الشريعة وفقهها .

ومحاضراته في حل «فروع العروة الوثقى» شهد له بفقاهة عالية واستنباط دقيق .

وقد أحكم أسرار نصوصها ونظم دراريها ببيان سهل وعبارة أنيقة . العلم الفرد والمجتهد الأوحد حجة الله الواضحة وبينته اللامعة المحقق «الميرزا علي الغروي التبريزي» لا زال مغموراً باللطف الربوبي فجدير بمتنجع الحقايق المسابقة الى الاحتفاظ بتقريراته لدرس الاستاذ الأكبر

«السيد الخوئي» المسماة «بالتنقيح»[١٢] ولا بدع ممن منحه المولى سبحانه ذكاء وقّاداً وفطنة مصيبة وحافظة قوية ألحقته بالحفاظ المعدودين فكان موئل رواد العلم بين من يستوضح منه ما لم تصل اليه فاكرته وبين من ينسخ ما جمعه من ثمرات بحوث أساتذته فإلى الباري عز وجل ابتهل بإدامة عنايته بهذه الشخصية اللامعة ليرتوي طلاب المعارف من غير آرائه ويستضيء رواد الحقايق بثاقب أفكاره ، مد الله تبارك وتعالى في أيامه الزاهية وأفاض عليه لطفه الذي يلحقه بالعلماء المحققين «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله مع المحسنين» .

الهوامش :

(١) مستدرك الحاكم ج٢ ص٦١١ومسند الطيالسي ص٢٧٠ والمحبر لابن حبيب ص٢٨٦ وتاريخ الشام ج٧ ص٢١٠ وفتح الباري ج٩ ص٤٤٠ .
(٢) فتح الباري ج٩ ص٤٣ وارشاد الساري ج٧ ص٤٥٩ وعمدة القاري ج٩ ص٣٠٤ .
(٣) الفهرست لابن النديم ص٤٢ .
(٤) تفسير روح المعاني للالوسي ج١ ص٢٤ .
(٥) تفسير القرطبي ج١ ص٥٨ .
(٦) احكام القرآن ج١ ص٣٦٦ .
(٧) صحيح البخاري باب فضائل القرآن وفتح الباري لابن حجر ج٩ ص٤٤ باب من جمع القرآن .
(٨) مستدرك الحاكم ج٢ ص٦١١ .
(٩) ارشاد الساري ج٧ ص٤٥٩ .
(١٠) تأسيس الشيعة ص٢٨٠ للصدر الكاظمي .
(١١) التدريب ص٢٤ والأوائل له ص١١٢ .
(١٢) حاشية الزرقاني على موطأ مالك ج١ ص١٠ .
(١٣) تاريخ اصبهان ص١٤٠ .
(١٤) تاريخ التشريع الاسلامي ص١٤٣ وفجر الاسلام ج١ ص٢٩٠ .
(١٥) صبح الأعشى ج١٠ ص١٩٤ .
(١٦) حجة الله البالغة ج١ ص١١٨ .
(١٧) تاريخ الفلسفة الاسلامية لمصطفى عبد الرزاق ص٢٠٥ .
(١٨) اعلام الموقعين ج١ ص٢٢٢ .
(١٩) المحلى لابن حزم ج١ ص٦١ .
(٢٠) جامع بيان العلم ج٢ ص٧٦ .
(٢١) التهذيب للشيخ الطوسي ج٢ ص٤٤١ طبعة ايران والمحاسن للبرقي ج١ ص٢١٤ ورواه مالك في الموطأ ج٣ ص٦٥ .

(٢٢) نيل الأوطار ج٧ ص٥٦ .
(٢٣) السنن الكبرى للبيهقي ج٨ ص٩٦ .
(٢٤) تهذيب التهذيب ج٢ ص١٠٣ واسعاف المبطأ برجال الموطأ ص١٧٦ للسيوطي .
(٢٥) شرح الزرقاني على موطأ مالك ج١ ص٢٣٢ وتهذيب التهذيب ج٢ ص١٠٣ .
(٢٦) شرح الزرقاني على الموطأ ج١ ص٢٣٢ .
(٢٧) تاريخ القضاء في الاسلام ص٦٢ .
(٢٨) ميزان الاعتدال ج١ ص١٩٢ طبعة مصر .
(٢٩) اداب اللغة العربية ج١ ص١٩٢ .
(٣٠) فجر الاسلام ج١ ص٢٩٩ .
(٣١) اداب اللغة العربية ج١ ص٢٠٨ .
(٣٢) تاريخ الفلسفة الاسلامية ص٢٠٣ .
(٣٣) تاريخ القضاء في الاسلام ص٣٩ .
(٣٤) طبقات المالكية ص٣٠ .
(٣٥) مناقب ابي حنيفة ج١ ص١٣٦ طبعة حيدر آباد .
(٣٦) مناقب الشافعي ص٤٤٠ .
(٣٧) تاريخ الاسلام السياسي ج٣ ص٣٣٨ .
(٣٨) تحفة المحتاج ج٤ ص٣٧٦ .
(٣٩) حصول المأمول من علم الأصول ص١٨٦ .
(٤٠) دائرة المعارف مادة جهد .
(٤١) معجم الأدباء ج١٥ ص٥٤ الطبعة الثانية .
(٤٢) الخطط المقريزية ج٤ ص١٤١ .
(٤٣) الوجيزة للبهائي .
(٤٤) المعتبر للمحقق ص٥ .
(٤٥) مقدمة الذكرى للشهيد الأول .
(٤٦) نهاية الدراية للسيد الصدر ص٢١٣ والدراية ص٤٠ .
(٤٧) نهاية الدراية ص٢٢٠ للسيد الصدر .
(٤٨) في اجازة السيد حسن الصدر للشيخ اغابزرك الطهراني : توفي ابن الجنيد سنة ٣٨١هـ وفي قصص العلماء ص٣٢٥ كان من مشائخ المفيد ومعاصر العماني والمعز البويهي وله اجوبة مسائل المعز البويهي وذكر ملاّ عبد الله التوني في الوافية انه رجع .
(٤٩) في رياض العلماء : العماني بضم العين المهملة وتشديد الميم بعدها الف وفي آخره نون نسبة الى عمان ناحية معروفة يسكنها الخوارج واقعة بين اليمن وفارس وكرمان وعمان بالقرب من (صحار) والحذاء بالحاء المهملة وتشديد الذال المعجمة ثم الألف الممدودة نسبة الى عمل الحذاء وبيعه .

(٥٠) تأسيس الشيعة ص٣٠٢ والفوائد المدنية ص٣٠ .
(٥١) رجال النجاشي ص٣٦ طبعة الهند .
(٥٢) قصص العلماء ص٣٢٤ للتنكابني .
(٥٣) روضات الجنات ص١٦٨ الطبع الاول .
(٥٤) الفوائد المدنية ص٣٠ .
(٥٥) مرآة الجنان لليافعي الحنبلي ج٣ ص٢٨ .
(٥٦) الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ج١ ص١٤١ .
(٥٧) نسختي التوقيع من الحجة(ع) اليه .
(٥٨) اجازة صاحب المعالم البحار ج٢٦ ص١٠٧ .
(٥٩) مستدرك الرسائل ج٣ ص٣٦٩ .
(٦٠) كامل ابن الأثير ج٩ ص٦١ وص٧١ وص٢٢٢ .
(٦١) كامل ابن الأثير ج٩ ص٦٩ وص٧١ والمنتظم ج٧ ص٢٣٨ .
(٦٢) التنقيح في شرح العروة الوثقى تقريراً لبحث السيد الخوئي تأليف الميرزا علي الغروي التبريزي صدر في عدة أجزاء ومنه اخترنا هذا الفصل .

السيد ابو القاسم الخوئي